الفصل الرّابع

تطور اللغة العربية من خلال النهضة العلمية

الفتوحات العربية بعد الإسلام اتّسعت اتساعاً كبيراً ، فقد أسست فى أقل قرن من الزمان أكبر إمبراطورية عرفتها القرون السابقة :

- فقد استولى العرب على شاطىء الفرات فى سنة ٦٣٣ هـ .
- وانتصروا على الروم فى أجنادين ٦٣٤ م .
- ودخلوا دمشق فى سنة ٦٣٥م
- وانتصروا على الفرس فى القادسية سنة ٦٣٧ م
- وخضعت لهم جميع سوريا سنة ٦٣٨ هـ .
- واستولوا على جميع فارس سنة ٦٤٢ م
- وخضعت لهم مصر سنة ٦٣٩ - ٦٤٢ م
- وفتحوا أذربيجان سنة ٦٤٢ م
- واستولوا على أفغانستان سنة ٦٦١ م .
- واستولوا على تونس سنة ٦٧٤ م
- واستولوا على السّند سنة ٧١٨ م
- واستولوا على أسبانيا سنة ٧١١ - ٧١٢ م
- واستولوا على سمرقند ٧١٢ م .

واستولوا فى خلال القرنين الثامن والتاسع على معظم أجزاء البحر المتوسط وأصبحوا سادة الدنيا [١] .

---

(١) انظر : كتاب : معجم العلماء العرب لباقر أمين المحامى / ٧ من التمهيد .

هذه الإمبراطورية انتشرت فى كل إقليم من أقاليمها لغة القرآن الكريم انتشاراً واسعاً، وأدىّ هذه الانتشار إلى تطور اللغة العربية فى اتساع ألفاظها ، وتطور معانيها.

ظواهر تطوّر اللغة العربيّة

ونلمح ظواهر هذا التطور فيما يلى : -

١ - تأثرها بلغات الأمم التى فتحها العرب المسلمون :

مما لاشك فيه أن امتزاج العرب واختلاطهم بغيرهم من الأمم والشعوب التى فتحوها أتاح لهم المجال الواسع لأحتكاك اللغة العربية بلغات الأمم الأخري ، وأدى هذا الصراع بين لغة الغالب ولغة المغلوبين إلى أن تنتصر اللغة العربية فى صراعها ، لأنها تملك رصيدًا ضخماً من الألفاظ ، وتراكيب محكمة من الأساليب ، وصوراً رائعة من البيان ، وتعبيرات مشرقة من بلاغة المعانى :

احتكّت : «فى صراعها مع اللغّات الأراميّة فى سوريا ، ولبنان والعراق ومع القبطية بمصر ومع البربرية فى شمال أفريقيا ، ومع الفارسية بإيران ومع التركيّة ببلاد المغول ومع الغوطية بأسبانيا ، وقضت قوانين الصراع اللغوى أن تصرع اللغات الثلاث الأولى منها حتى أصبحت المساحة التى تستخدم فيها اللغة العربية لغة حديث وكتابة لنحو ١٤ مليون كيلو متر مربع، وبلغ عدد المتكلمين بها زهاء ١٠٠ مليون .

ولكنها خرجت من صراعها هذا ، وهى متأثرة باللغات التى صرعتها تأثراً يختلف قوة وضعفاً باختلاف اللغات فتأثرها بالسريانية مثلاً كان أظهر كثيراً من تأثرها بالقبطية والبربرية . بل إنها لم تكن تتأثر بهاتين اللغتين الأخيرتين إلا في اللهجات العامية التى تشعبت منها في مناطقهما الأولى مصر وشمال أفريقيا»[١] .

٢ - ولاشك أن هذا التأثر المحدود يضيف إلى اللغة العربية ألفاظاً جديدة ومعانى جديدة ، ومسميات جديدة . وإضافة الألفاظ والمعانى والمسميات إلى بناء اللغة العربية يتيح لها مجال التوسع فى رصيد الألفاظ، والتنوع فى أساليب التعبير .

---

(١) فقه اللغة للدكتور عبد الواحد وافى / ١٢٤ ، ١٢٥

٣ - ومن ظواهر التطور :

دخول مفردات إلى ساحة اللغة عن طريق الوضع والاشتقاق والقياس لتستقبل ما تأخذه من الأمم الأخرى التى احتكّت بها ، لتستطيع أن تستوعب الجديد من الأفكار التى تساعد على الرقي والتقدم . واللغة العربية فى تدرجها من عصر الجاهلية إلى عصر الفتوحات الإسلامية كانت متطورة ، لم تقف عند مأثورات الجاهلية من الألفاظ الخشنة والمعانى الساذجة ، والصور المحدودة ، بل انطلق بها القرآن الكريم إلى ساحة أكبر ، فتطورت ألفاظها ، وارتقت معانيها ، وسمت أساليبها ، وفى عصر بنى أمية زاد ازدهارها، وتنوعت فعاليتها إلى أن جاء العصر العباسى الذى كثرت فيه الترجمة وتعددت المعرفة ، وتنوع العلم ، وكان لهذا كله صداه فى حقل التطور اللغوى .

وقد وضح الدكتور على عبد الواحد وافى هذا التطور بقوله :

« فقد كان لانتقال العرب من همجية الجاهلية إلى حضارة الإسلام ، ومن النطاق العربى الضيق الذى امتازت به حضارتهم فى عصر بنى أمية إلي الأفق العالمى الواسع الذى تحولوا إليه فى عصر بنى العباس ، كان لهذين الانتقالين أثر فى نهضة لغتهم ورقى أساليبها ، واتساعها لمختلف فنون الأدب ، وشتى مسائل العلوم »[1] .

٤ - المرونة فى التعبير والدلالة :

لاشك أن انتقال الأمة من البداوة إلى الحضارة له أثر فعال فى تنوع الدلالات ، والمرونة فى الأساليب ، والدقة فى إبراز المعانى ، واختيار الألفاظ الرقيقة المهذبة التى تُكْسى بها . فتكسبها جمالاً وروعة .

« وإن موازنة بين حالة اللغة العربية فى عهد بداوة العرب قبل الإسلام وحالتها فى عهد حضارتهم الإسلامية ... لأصدق برهان على ذلك ». وإن البدوى الذى لم يلهمه شيطانه فى مدحه للأمير أحسن من قوله :

---

(١) علم اللغة / ٢٥٧

أنت كالكلب فى حفاظك للعهد وكالتّيس فى قراع الخطوب

قد استطاعت قريحته بعد أن هذبتها حضارة بغداد أن تجود بمثل قوله :

عيون المها بين الرّصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى [1]

0 - واللغة مرآة صادقة للبيئة التى تعيش فيها ، والبيئات متعددة وظواهر الطبيعة تختلف من بيئة إلى بيئة ومن إقليم إلى إقليم.

ولما انتشرت اللغة العربية فى الوطن الإسلامى الكبير وهو وطن مختلف البيئات متعدد السمات ظهرت فى اللغة العربية هذه الظواهر الطبيعية ، والتعبير عنها تنّوع تبعاً لاختلافها . ولا شك أن خصائص الأقاليم الطبيعية تتأثر بها اللغة في مجالات التشبيه والتصوير ، وفى طرق التعبير عن المعانى ودقة دلالاتها .

ومن هنا كانت اللغة المرآة الصادقة التى تنعكس عليها مظاهر البيئة .

ومن أجل ذلك تتمثل فى أساليب اللغة « وفنونها الأدبية ما تختص به بيئتها الطبيعية من تلبد أو صفاء ، وقبح أو جمال ، وصخب أو هدوء ، وتنوع أو اطراد ، وتقلب أو ثبات ، وما ينبعث عنها من رخاوة أو قوة ، وخمول أو نشاط وخشونة أو نعيم .

ولهذا كله يستطيع الباحث معرفة البيئة الأولى التى نشأت فيها لغة ما على ضوء مفردات هذه اللغة وغزارتها فى بعض النواحى، وجَدْبها فى نواح أخرى، وما تجنح إليه أساليبها ومادتها فى الخيال والتشبيه ، وخواص آدابها ، وما إلى ذلك » [2] .

والناظر إلى اللغة العربية فى آدابها وفنونها أو فى علومها وطرق التعبير عنها يلحظ آثار هذه الظواهر الطبيعية فى المفردات أو فى الأساليب أو فى التصوير ، أو التعبير عن المعانى والجنوح إلى الخيال .

ولا أدل على ذلك من أن الأدب العربى فى شعره ونثره كان مرتبطًا فى عصر الحضارة

---

(١) المرجع نفسه / ٢٥٨ .

(٢) علم اللغة ، ٢٥٨ .

الإسلامية المزدهر بالأقاليم التى يضع فيها رحاله فظهر ما يسمى بالأدب العباسى ، والأدب الأندلسى ، والأدب المصرى الخ .

٦ - التطور الصوتى :

واللغة تتأثر من حيث أصواتها ومخارج حروفها بالتطور الاقتصادي فى بيئتها ، لأن نظم الاقتصاد ، وشئون الحياة المادية ، والمهن السائدة قد تؤثر فى اللغة نفسها ، فقد يؤدى نوع العمل الذى يزاوله سكان منطقة إلى تشكيل أعضاء نطقهم فى صورة خاصة تتأثر بها مخارج الحروف ونبرات الألفاظ » (١)

واللغة العربية حينما تعلمها غير العرب تأثرت أعضاء نطقهم فى مخارج الحروف ونبرات الصوت ، ولا أدل على ذلك من أن سيبويه الفارسى العملاق شيخ اللغة العربية، وأستاذها الذى لا يجارى ، وصاحب كتابها المعلم كان فى لسانه حُبْسة ، يقول عنه الفرّاء : « فأتيته فإذا هو أعجم لا يفصح ، سمعته يقول لجارية له : هات ذيك الماء من ذاك الجرّة ، فخرجت من عنده ، فلم أعد إليه (٢) .

٧ - التطوّر الاجتماعى :

والتطور الاجتماعى له أثره فى صبغ اللغة بصبغة خاصّة فى مجال مفرداتها ودلالتها، وقواعدها ، وأساليبها .

ولا أدل على ذلك من أن اللغة العربية بعد الإسلام : « تتلمس أحسنَ الحيل . وأدناها إلى الحشمة والأدب فى التعبير عن هذه الشئون فتلجأ إلى المجاز فى اللفظ وتستبدل الكناية بصريح القول ..

وقد كان لها بهذا الصدد فى ألفاظ القرآن الكريم وعباراته أسوة حسنة « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم » (٣) . « واهجروهن فى المضاجع » (٤)

---

(١) المرجع نفسه / ٢٦٠ .
(٢) معجم الأدباء : ١/ ١٣٨ .
(٣) البقرة / ٢٢٣ .
(٤) النّساء / ٣٤ .

« وقد أفضى بَعْضُكم إلى بعض »[1] . « أُحلّ لكم ليلة الصّيام الرّفثُ إلى نسائكم »[2] وما إلى ذلك من كريم العبارات ، ونبيل الألفاظ »[3] .

٨ - التطور العقلى وأثره فى التطور اللغوى :

هناك علاقة وطيدة بين التّطور العقليّ والتّطوّر اللغويّ ، لأن اللغة هى الوسيلة التى عن طريقها يبرز العقل أهم ما أبدعه فى مجال الفكر ، وكلما ارتقى العقل ارتقت معه اللغة التى تستقبل أفكاره ، وتصوغها فى أحسن عبارة ، وأجمل بيان .

ويعبر أستاذنا الدكتور وافى عن هذا التطور العقلى الذى يلازمه التّطوّر اللغوى فيقول :

« خصائص الأمة العقلية ، ومميزاتها فى الإدراك والوجدان ، والنزوع ، ومدى ثقافتها ومستوى تفكيرها ومنهجه ، وتفسيرها لظواهر الكون وفهمها لما وراء الطبيعة ، كل ذلك وما إليه ينبعث صداه فى لغتها ... إلى أن يقول : « ففى مثل هذه الشعوب تكثر الألفاظ الدالة على المعانى الكلية ، والتراكيب المعبرة عن الحقائق العامة ، وتَغْزُر أزمنة الأفعال، وتطول الجمل وتتعدد أجزاؤها، وتتنوع الروابط، وتختلف دلالاتها، فيتسعُ التعبير عن دقيق الوجدان وعميق الإدراك ، وحقائق الفلسفة والعلوم »[4] .

٩- تطور المعانى من خلال الجذور اللغوية الثابتة :

وتطور هذه المعانى عامل هام من عوامل تطوّر اللغة العربية، وكما قدمت سابقاً أن اللغة مرآة عاكسة لكل ما هو جديد فى العالم الإسلامى على اختلاف بيئاته وتنوع بلدانه، وتعدد ظواهر الطبيعة فيه ، فقد استوعبت اللغة العربية كل هذه الظواهر الجديدة عليها حينما خرجت من بيئتها التى نشأت فيها بفضل تطور المعانى من خلال جذورها اللغوية الثابتة .

---

(١) النساء / ٢١ .
(٢) البقرة / ١٨٧
(٣) علم اللغة للدكتور وافى / ٢٦٣ .
(٤) المرجع نفسه / ٢٦٦ .

ولما استطاعت اللغة العربية أن تنهض لتستقبل المعجزة الكبرى بما جاءت من عقائد وقيم ، وعلم وتشريع ، وحكم وأمثال ، وعبر وعظات ، كان من السهل عليها أن تستوعب ماجدّ عليها بسبب الفتوحات ، وانتشار الحضارة الإسلامية.

نعم ، إن مفاهيم القرآن العقائدية ، وأحكامه التشريعية ثابتة لا تزول باقية لا تتبدل ولكن أنّى لها ذلك ، ودلالة الألفاظ أو معانيها فى تبدل مستمر فى جميع اللغات ؟

وهنا نجد فى اللغة العربية وحدها دون غيرها الحل لهذه المشكلة .

«ذلك أن من خصائص اللغة العربية ثبات الحروف الأصلية الثلاثة من كل مادّة مهما بطرأ على الكلمة من تبدل فى اشتقاقها وصيغها كحروف : ع - ل - م ، فإن جميع الألفاظ التى اشتقت أو يمكن أن تشتق من هذه المادة كالعِلم ، والعلوم ، والعلماء ، والاستعلام والمعلومات ، والمعالم ، والتعليم ، الأعلام ، وغيرها من الألفاظ المشتقة من هذا الأصل تشتمل على جميع الحروف الثلاثة ، ويقابل ثبات الحروف الثلاثة ثبات المعنى الأصلى ، والمفهوم المشترك بين الألفاظ .

وهكذا تبدو خاصة بثبات الأصول فى صورتها اللفظية ، ودلالتها المعنوية .

وهذه الخاصة هى التى يتطلبها الإسلام لإمكان تثبيت المفاهيم التى يريد تثبيتها فى مبادئه وأحكامه مع بقائها واستمرارها فى اللغة الشائعة المستعملة عند أبنائها دون أن تحدث فجوة واسعة بين الأصل اللغوى المستعمل ، وما انتهى إليه فى صورته ، ومعناه.

وهكذا يبقى أبناء العربية على صلة وثيقة وفهم صحيح للنص القديم مهما طال العهد به .

وأما اللغات الأخرى ، فإن الألفاظ فيها يعتريها التّبدل والتحول فى صورتها حتى تتغير حروفها وأصواتها ، فلا تكاد تعرف أصلها ، وفى دلالتها المعنوية كذلك، وبهذه الصورة يصبح بين ألفاظ النص القديم ، وما انتهت إليه هذه الألفاظ فى تطوّرها بون كبير يؤدى إلى جهل المعنى القديم ، أو إلى الوقوع فى خطأ جسيم يحمل اللفظ القديم على اللفظ الحديث أو المعنى الجديد »[1] .

---

(١) انظر : بحث التفاعل الحضارى فى تكوين اللغة وتطويرها للأستاذ محمد مبارك عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ، مجلة اللسان العربى المجلد السابع ١/ ٤٩ .

والواقع أن ما أثاره الأستاذ محمد مبارك فى بحثه القيم يشير إلى نقطة هامة جدًا وهى أن جذور اللغة العربية جذور ثابتة ، وبإضافة حروف ما إلى هذه الجذور لتعليها معانى جديدة من الممكن أن تكون جهاز استقبال فعال لكل ما تأتى به الحضارة من ألوان المعرفة، وتنوع العلوم ، وتطوّر الصناعات . وكأن اللغة العربية بهذه الخصوصية التى تميّزت بها من بين اللغات ، يجعلها تملك علم المحافظة والثبات فى يمينها ، وعلم التطور والتجديد فى يسارها . ولا غرو فى ذلك فهى لغة المعجزة الكبرى ، لغة القرآن الكريم .

ا - ابتكار مصطلحات جديدة فى بناء اللغة العربية :

ومن عوامل تطور اللغة العربية ظهور مصطلحات جديدة فى نسيجها اللغوى لم تكن معروفة من قبل .

والناظر إلى العلوم الإسلامية التى انبثقت من القرآن الكريم ، ودعت اليها متطلبات العلم ، وضرورة نشر الحضارة الإسلامية يجد أن هناك كثيرًا من المصطلحات العلمية دخلت ساحة اللغة العربية مع أنها لم تكن معروفة قبل الإسلام.

فمن مصطلحات علم الكلام : الجبر والاختيار - العقل والسمع - الحسن والقبح - الصلاح والأصلح - التكليف واللطف الخ [١] .

ومن مصطلحات أصول الفقه الإجماع - القياس - العلة - الحاكم - الحُكْم - دلالة النص - مفهوم المخالفة - العام ودلالته - الخاص ودلالته الخ [٢] .

ومن مصطلحات علم القراءات : رسم المصحف - القراءات المتواترة - القراءات الشاذة - الأحرف السبعة - الرواية - الإسناد - الإدغام - التحقيق أو التسهيل - الوقف - النقل - الروم - الإشمام - الاختلاس الخ [٣].

---

(١) انظر : النزعة العقلية فى تفكير المعتزلة للدكتور على فهمى خشيم طـ ثانية / ٥٥ - الشركة العامة للنشر التوزيع .

(٢) انظر : علم أصول الفقه للأستاذ عبد الوهاب خلاف .

(٣) انظر : مقدمة معجم القراءات القرآنية للباحث وزميله الدكتور أحمد مختار .

- ومن مصطلحات علم الحديث : الناسخ والمنسوخ - الصحيح - الحسن - الضعيف - المرسل - المنقطع - المُعْضِل - الشاذ - الغريب [1] .

- مصطلح الفرائض : والمقصود به علم الحساب فى توزيع المواريث ، وهو مصطلح جديد أتى به الإسلام ، ولم يكن معروفًا من قبل على هذا النحو .

ويعرفه ابن خلدون بقوله : « هو معرفة فروض الورثة ، وتصحيح سهام الفريضة فى كَمْ تصبح باعتبار فروضها الأصول .. وذلك إذا هلك أحد الورثة ، وانكسرت سهامه على فروض ورثته فإنه حينئذ يحتاج إلى حساب يصحح الفريضة الأولى حتى يصل أهل الفروض جميعاً فى الفريضتين إلى فروضهم من غير تجزئة» [2] .

ويناقش ابن خلدون العلماء الذين يجتمعون على فضله بالحديث المنقول عن أبى هريرة رضى الله عنه : « إن الفرائض ثلث العلم وإنها أول ما ينسى » .

والمراد عند هؤلاء العلماء أن الفرائض فروض الورثة . ولا يقنع ابن خلدون بهذا الفهم لهذا الحديث الذى أخرجه أبو نعيم الحافظ لأن الذى يظهر له : « أن هذا المحمل بعيد وأن المراد بالفرائض هى الفرائض التكليفية فى العبادات والعادات ، والمواريث وغيرها .

وبهذا المعنى يصبح منها النّصفيّة والثلثية ، وأما فروض الورثة فهى أقل من ذلك كله بالنسبة إلى علم الشريعة كلها » .

ويستدل ابن خلدون على رأيه بدليل عقلى فيقول : « ويعين هذا المراد أن حمل لفظ: « الفرائض على هذا الفن المخصوص أو تخصيصه بفروض الورثة إنما هو اصطلاح ناشىء للفقهاء عند حدوث الفنون والأصطلاحات، ولم يكن فى صدر الإسلام يطلق على هذا إلاَّ على عمومه مشتقًا من الفرض الذى هو لغة التقدير والقطع [3] .

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون / ٤٠٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون / ٤١٧ .

(٣) المرجع نفسه / ٤١٨ .

- ومن مصطلحات علم الفقه :

خيار الشرط - خيار الرواية - خيار العيب - خيار البيع الفاسد الإقا : - المرابحة السَلَم - الصرف الشفعة - الوديعة - العارية - المزارعة - التدبير - الاستيلاد - المساقاة الخ [1] .

- ومن مصطلحات علم التصوّف :

التصوّف ، وهو مصطلح جديد لم يكن معروفاً من قبل .

وقد اختلف العلماء فى اشتقاقه فمنهم من قال : معناه الزهد ، ورمزه لبس الصوف، وهو يدل على الخشونة ، والابتعاد عن الترف والملّذات ، ومنهم من قال : إنه من الصّفاء أو من الصفة .

وقد ناقش القشيرى رأى هؤلاء وهؤلاء ، فقال : « ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس ، والظاهر أنه لقب ، ومن قال : اشتقاقه من الصّفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوى قال : وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه [2]

وعلق ابن خلدون على رأى القشيرى فقال : قلت : والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف ، وهم فى الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس فى لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف [3] .

وإلى جانب مصطلح : التصوف نجد مصطلحات أخرى فى مجاله : منها :

المواجد - الزهد - المجاهدة الأحوال - المقامات - المريد - المحاسبة - الأذواق الخلوة - الورع - الحجاب - المشاهدة - الكشف - الكرامة - وحدة الوجود - التجلى - الأبدال .

---

(١) اللباب فى شرح الكتاب لأبى الحسن القدورى ، فإن هذه المصطلحات أبواب فقهية تحتها مسائل ، وقضايا.

(٢) مقدمة ابن خلدون / ٤٣٩ .

(٣) المرجع نفسه والصفحة .

- مصطلح علم التفسير :

إن مصطلح « تفسير » اختلف العلماء فى أصله ومعناه ، ففى كتاب : «البرهان فى علوم القرآن » للزركشى : أنه مأخوذ من التفسرة .

والتفسرة كما يقول صاحب اللسان « : « فسر » : هى البول يستدل به على المرض وينظر فيه الأطباء يستدلون بلونه على علة العليل ، وكذلك المفسر يكشف عن شأن الآية، وقصصها ومعناها ، والسبب الذى أنزلت فيه، وكأنه تسمية بالمصدر، لأن مصدر فَعّل جاء أيضاً على تفعله . نحو : جرّب تجربة ، أو كرّم تكرمة :

وفى رأى ابن الأنبارىّ أصل التفسير مأخوذ من قول العرب : فسرت الدابة وفسرتها: إذا ركضتها ، وهى محصورة لينطلق حصرها ، وعلى هذا المعنى يصير معناه إلى الكشف أيضاً .

ومعنى التفسير على هذا الرأى : كشف المغلق من المراد بلفظه ، والفعل منه يأتى مزيدًا وغير مزيد ، يقال : فسّرت الشىء أُفسّره تفسيرًا ، وفَسَرْتُه أفسُره فَسْرًا وقد سمى ابن جنى كتابه الشارحة : الفَسْر ، وهى مصدر سفر [1] .

والرأى الذى أميل إليه ، لأنه أوضح فى معانى الدلالات ، وعلاقات المعانى أن التفسير أصله سفر لافسر ، وضعت الفاء موضع السين على أساس القلب المكانى ، والقلب المكانى باب معترف به فى مجال اللغة ، وسفر معناها : الكشف ، يقال : سفرت المرأة سفوراً : إذا ألقت خمارها عن وجهها ، وهى سافرة ، وأسفر الصبح : إذا أضاء ، وإنما بنوه على التفعيل فقالوا : التفسير ، لأنه للتكثير كقوله تعالى : «يذبِّحون أبناءَكم[2]، « وغلّقت الأبواب » [3] ، فكأنه يتبع فى تفسيره سورة بعد سورة،وآية بعد أخرى ».

---

(١) انظر لسان العرب : « فسر » .

(٢) البقرة / ٤٩ .

(٣) يوسف / ٢٣

ومن مصطلحات التفسير الأخرى : المكّى والمدنى - المحكم والمتشابه - التفسير النقلى - التفسير العقلى - الناسخ والمنسوخ - الخاص والعام - المطلق والمقيد - والمجمل والمفصل الخ .

١١ - تطور الدلالات اللغوية :

ومن أهم عوامل تطور اللغة العربية فى مجال الدلالة ما سمى فى الدّراسات القرآنية: الوجوه والنظائر ، ويريدون بالوجوه اللفظ المشترك الذى يستعمل فى عدة معان.

والنظائر : جمع نظير أو نظيرة ، ونظير الشىء مثله [١] .

وفى « البرهان » للزركشى أن بعضهم جعل هذه الوجوه والنظائر « من أنواع معجزات القرآن الكريم حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهاً أو أكثر أو أقل ولا يوجد ذلك فى كلام البشر » .

وذكر (مقاتل) فى صدر كتابه حديثاً مرفوعاً « لا يكون الرجل فقيهاً كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة » .

ويذكر الزركشى مثالا لهذه الوجوه المتعددة لكلمة «الهدى» التى تمثلت دلالتها فى سبعة عشر معنى نذكر منها ما يلى :

- بمعنى البيان كقوله تعالى : أولئك على هُدًى من ربِّهم [٢] .
- وبمعنى الدِّين : « إنّ الهدى هدى الله » [٣] .
- وبمعنى الداعى : «ولكُلِّ » قَوْمٍ هاد [٤] .
- وبمعنى الإيمان : « ويزيد الله الذين اهتدوا هُدًى » [٥] .

---

(١) انظر اللسان : نظر .

(٢) البقرة / ٥ .

(٣) آل عمران / ٧٣ .

(٤) الرعد / ٧ .

(٥) مريم ٧٦

- وبمعنى الرّسل والكُتُب : « فإمّا يأتيَنّكم منى هدى » [١] .

- وبمعنى المعرفة : « وبالنّجم هم يهتدون » [٢] .

- وبمعنى الرشاد : « اهدنا الصراط المستقيم » [٣] .

- وبمعنى القرآن : « ولقد جاءهم من ربهم الهُدَى » [٤] .

- وبمعنى التوراة : « ولقد آتينا موسى الهدى » [٥] .

- وبمعنى التوحيد : « إنّ نَتّبع الهَدى معك نتخطف » [٦] .

- وبمعنى التوبة : « إنا هُدْنا اليك » إلخ [٧] .

وفى جانب الأحكام الشرعية لا تكفى معرفة الدلالات الوضعية على الإطلاق كما يقول ابن خلدون : « بل لابد من معرفة أمور أخرى تتوقّف عليها تلك الدّلالات الخاصة، وبها تستفاد الأحكام بحسب ما أصّل أهل الشرع، وجهابذة العلم من ذلك ، وجعلوه قوانين لهذه الاستفادة، مثل : المشترك لا يراد به معنيان معا، والواو لا تقتضى الترتيب ، والعام إذا أخرجت أفراده الخاصة منه ، هل يبقى حُجَّة فيما عداها ؟ والأمر للوجوب أو الندب وللفَوْر أو التراخى .

والنّهى يقتضى الفساد أو الصحة ، والمطلق يحمل على المقيد .. وأمثال هذه فكانت كلها من قواعد أهل الفن ، ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية » [٨]

---

(١) البقرة / ٣٨ .

(٢) النحل / ١٦ .

(٣) الفاتحة / ٦ .

(٤) النجم / ٢٣ .

(٥) غافر / ٥٣ .

(٦) القصص / ٥٧ .

(٧) الأعراف / ١٥٦ ، انظر البرهان ١/ ١٠٢ - ١٠٤ .

(٨) مقدمة ابن خلدون / ٤٢١ .

١٢ - اختفاء بعض الألفاظ العربية الجاهلية من نسيج اللغة العربية، لأن هذه الألفاظ تدل على نُظُم حرمها الإسلام كالأنصبة التى كانت فى حرْب الجاهلية مثل :

١ - المرباع : وهو ربع الغنيمة .

٢ - الصفايا : وهى ما يصطفيه الرئيس يختاره قبل قسمتها كالسيف والجارية .

٣ - النشيط : وهو ما يغنمه الغزاة فى الطريق قبل أن يصلوا إلى جهة القتال .

٤ - الفضول : هو ما يبقى من الغنيمة بعد قسمتها مما يصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس .

وكذلك اختفت ألفاظ:

الإتاوة - المكس - الحلوان - الصرورة : «وهو الذى يترك الزواج تبتّلاً » - النوافج وهى : «الإبل تساق فى الصِّداق» .

واختفت أيضاً أسماء الأيام والأشهر الجاهلية لأنها تتصل بشئون وثنية أو نظم جاهلية واستبدل بها أسماءها الحالية [١] .

ويعلق استاذنا الدكتور وافى على أسماء الأشهر التى كانت فى الجاهلية بتقديمه نصّا ذكره فى هامش كتابه « فقه اللغة» نقله عن الخطيب خير الدين فى تذكرته فقال :

« إن (المحرّم) كان يقال له عند الجاهلية : (المؤتمر) لأنه أول السّنة فكل شىء من أقضيتها يؤتمر فيه .

- و (صفر) : (الناجر) من النجر أى شدة الحرّ .

- و (الربيع الأول) : الخوان من الخيانة ، والثانى : الصّوان من الصيانة .

- و (جمادى الأولى) : الزبّاء وهى الداهية الكبيرة ، وجمادى الأخرى : العائد لكثرة القتال والقتل فيه .

- و (رجب) : الأصمّ لأنهم كانوا يكفّون فيه عن القتال ، فلا تسمع فيه أصوات السلاح

و (شعبان) :الواغل ، وهو الداخل على قوم لم يدعوه لهجومه على رمضان.

---

(١) انظر فقه اللغة للدكتور وافى ١١٧

- و (رمضان) : الباطل ، وهو كُوزٌيكال به الخمر .

- و (شوال) : العادل ، لأنه من أشهر الحج ، فكان يثنيهم عن غير مُهِمّاته .

- و (ذو القعدة) : رنّة لأن الأنعام كانت ترنّ فيه لقرب النحر .

- و (ذو الحجة) : تَرْك : لأنهم كانوا يتركون الإبل فيه [1] .

١٣ - الجدل والمناظرة :

إذا ألقينا نظرة على تاريخ العرب قبل الإسلام نجد أن بذور الجدل غرست فى طبيعة العرب، وميلهم الى المناظرة ثابت فى جبلّتهم وقد ظهر ذلك جليًا « فى أسواقهم التى كانت تقام لتعرض على مسارحها فنون من المناظرة، وألوان من الجدل فى مجال القول : خطابة وشعراً ونثراً.

وموضوعات هذه المناظرات : التحاكم فى الخصومات والتفاخر بالأنساب، والتباهى بالكرم، والاعتزاز بالفضائل ، والتَّغنّى بحب الجمال إلى جانب المنافع التجارية التى ينتفعون بها فى هذه الأسواق .

ومع هذه المنافع التجارية ، فقد كان الاتّجار بالكلام كما يقول أستاذنا الدكتور وافى «أعظم خطراً ، وأجل شأنا من الاتجار بالبضائع » [2] .

وليس ثمة شك فى أن هذه المناقشات الكلامية عادت على اللغة العربية بالنمو والتطور قبل الإسلام من حيث تهذيبها ، وانتقاء الحوشىّ منها ، وتشعب أركانها ، وغزارة إنتاجها .

وأهم هذه الأسواق : سوق عكاظ ، والمجّنة ، وذو المجاز.

وهذه الأسواق كانت تقام قبل موسم الحج حيث تجتمع فيها وفود القبائل الوثنية ممّا كان له أكبر الأثر فى بلوغ اللغة العربية قبل الإسلام درجة من الرّقى أهّلتها لأن تستقبل القرآن الكريم بهذه اللغة الأدبية النموذجية، وهى لغة قريش، ولكن بذور الجدل التى

---

(١) فقه اللغة وهامشة/ ١١٧

(٢) المرجع السابق/ ١١٣

لمسناها في الأدب الجاهلي ، وأسس المناظرات التي لمحناها في مجالسهم ومناقشاتهم، ورواها لنا التاريخ ما هي إلا غيض من فيض ، وقطرة من بحر بالنسبة للجدل الذي نما تحت ظلال الحضارة الإسلامية، والمناظرات التي انبثقت من العلوم الإسلامية التي تعدّدت فروعها في مجالاتها المختلفة لغة ونحواً، حديثاً وتفسيراً ، أصولاً وفقهاً مما كان له أثر كبير في تطور اللغة العربية من حيث المفردات ، والتراكيب ، والعبارات ، والحجج والبراهين .

وقبل أن نبين « أثر الجدل في ارتقاء اللغة العربية وتطورها نلقي الضوء على معنى الجدل من حيث التعريف والحدّ .

لقد وضع أبو الحسن علي بن محمد الجرجاني تعريفات متنوعة لمعنى الجدل ، وهي في حقيقة أمرها متقاربة ، لأن الجدل بطبيعته يشمل هذا التنوّع في مقاماته المختلفة ، فهو يقول :

- **الجدل** : هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات .

والغرض منه : إلزام الخصم ، وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان» .

- الجدل : دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجّة أو شبهة ويقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة .

- الجدل : عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقديرها [1] .

- أما **المناظرة** فقد عرفها الجرجاني بقوله :

« المناظرة لغة من النظير أو من النظر بالبصيرة .

واصطلاحاً : هي النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب.

- **الجدل في القرآن الكريم :**

وقد ورد الجدل في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه هي :

---

(١) انظر التعريفات في كتاب : « التعريفات» / ٤١ .

أ - « ما ردّ الله على الخصوم من الحجج والبراهين ، وما ساقه من الأدلة لتثبيت العقائد وتقرير قواعد الملة مما جاء على ألسنة رسله وأنبيائه ، وما ألهم الله به عباده الصالحين من قول بالحق ، ودفع للباطل . وهذا جدل بالحق ، بل هو أمر ضرورى لتبليغ رسالة الله إلى أهل الأرض ، ودفع ما يعتورها من شبهات ....

ب - « ما ورد فى القرآن بطريق الحوار، والقصد منه الاسترشاد وحب الاستطلاع والنظر للعظة والاعتبار . ومن هذا القبيل جدل إبراهيم عليه السلام مع ربه حيث قال: « ربِّ أَرِنى كَيْف تحُيى المَوتى قال أو لم تؤمن. قال بلى ولكن ليطمئن قلبى »[1] .

وهكذا جدال الملائكة[2] وجدل إبليس مع الله فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم حيث رفض السجود لآدم محتجًا بأنه خلق من نار ، وآدم خلق من طين ، والنار أفضل من الطين فى نظره ، وهو احتجاج باطل ، لأن الطين أصل لكل شىء والنار داخلة تحت هذا الشىء .

وفى القرآن الكريم سورة كاملة تسمى سورة المجادلة .

جـ - ما يأتى على ألسنة الكفار من الاعتراضات والشّبه ، والدعاوى الباطلة التى حكاها القرآن الكريم ، وبيّن بطلانها ، وما تنطوى عليه من مفاسد ، وهذا يدخل تحت عنوان الجدل بالباطل كما قال تعالى : « وجادلوا بالباطل ليُدْحِضوا به الحقّ[3] .

على أنّ القرآن الكريم نفسه ثار حول بعض آياته القرآنية جدال ومناظرة ، والقارىء لكتب التفسير يجد فيضاً غزيراً من هذا الجدال الذى دار حول بعض آياته وبخاصة الآيات التى تحتاج الى تأويل .

واذكر من ذلك على سبيل المثال ما سجله الألوسى فى تفسيره حيث قال :

---

(١) البقرة / ٢٦٠ .

(٢) فى قصة خلافة الله فى الأرض انظر البقرة الآيات ٣٠ - ٣٤ .

(٣) غافر / ٥ ، وانظر مناهج الجدل فى القرآن الكريم ٢١ ، ٢٢ بتصرف .

بصدد تفسير (مِنْ) فى قوله تعالى : « وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروح منه» [1] : قال: (مِن) «هى لابتداء الغاية مجازاً لا تبعيضية كما زعمت النصارى » .

ثم ذكر مناظرة دارت رحاها بين طبيب نصرانى حاذق ، وبين على بن الحسين الواقدى المروزىّ ، ونترك الألوسى ليصوّر لنا بقلمه قصة هذه المناظرة :

قال :

« يحكى أنّ طبيباً حاذقًا للرشيد ناظر على بن الحسين الواقدى المروزى ذات يوم فقال : إنّ فى كتابكم ما يدلّ على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى، وتلا هذه الآية، فقرأ الواقدى قوله تعالى: « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه»[2] فقال: إذًا يلزم أن يكون جميع الأشياء جزءاً منه سبحانه، تعالى الله ـ علوّاً كبيراً ـ فانقطع النصرانى فأسلم ، وفرح الرشيد فرحاً شديداً ووصل الواقدى بصلة فاخرة». [3]

ونخلص من هذا العرض الخاص بجدل القرآن الكريم سواء كان هذا الجدل من نسيج القرآن أو من المجادلين والمناظرين حول الآيات المشكلة فى القرآن الكريم .

نخلص من ذلك كله إلى القول بأن الجدل تحول إلى علم من العلوم الإسلامية فى عصر الحضارة التى ازدهرت وآتت أكلها بفضل القرآن .

ويتناول ابن خلدون علم الجدل شارحا أصوله ، مبينا قوانينه بقوله :

« وأما الجدل، وهو معرفة آداب المناظرة التى تجرى بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم، فإنه لمّا كان باب المناظرة في الرد والقبول متّسعا. وكل واحد من المناظرين فى الاستدلال والجواب، يرسل عنانه فى الاحتجاج، ومنه ما يكون صواباً ، ومنه ما يكون خطأ ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها فى الرّد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب ، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً،

---

(١) النساء ١٧١

(٢) الجاثية ١٣

(٣) انظر تفسير الألوسى ٦/ ٢٥

وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً « ومحل اعتراضه أو معارضته ، وأيْن يجب عليه السّكوت ، ولخصمه الكلام والاستدلال؟» [1] .

ولا شك أن هذا الجدل كان له دور فعّال ، فى نمّو اللغة العربية وتطوّرها حيث يحتاج المناظر إلى صياغة الدليل بلفظ مؤثر ، وتركيب معبرّ ، وصياغة محكمة ، وترتيب منسق، وتفكير مرتب :

---

(١) المقدمة / ٤٢٢